وقف الجامعات والمكتبات ودورها في تفعيل البحث العلمي في الحضارة الإسلامية

الباحث: إلياس بولفخاذ
سنة ثانية دكتوراه فقه وأصوله، معهد العلوم الإسلامية، جامعة الوادي
brahimoslim39@gmail.com

ملخص البحث

اهتمت الحضارة الإسلامية ومنذ عهدها الأول بالعملية التعليمية، فكان الطلبة يرتادون المساجد للأخذ عن العلماء الذين يعقدون مجالس العلم فيها، وكذا لمطالعة الكتب الوقفية التي تحويها، ومع تعاقب العصور وقفت للجامعات والمكتبات أماكن خاصة بها، كما وقف لها أموال نقدية وعينية أسهمت في استقرارها مما انعكس على مستوى التحصيل العلمي بها فأنتجت علماء كبار شغلوا الناس باكتشافاتهم و اختراعاتهم وأبحاثهم العلمية المتميزة.

الكلمات المفتاحية: وقف الجامعات – وقف المكتبات – التعليم – البحث العلمي – الرقي الحضاري.

المقدمة.

الشرائع الإسلامية شرائع سماوية جمعت بين الجسد والروح بين عالم السماء وعالم الأرض بين الدنيا والآخرة، هذه المعادلة التي فشلت في تحقيقها الكثير من النظم البشرية، ومن هذه الشرائع منظومة الزكاة أحد أركان الإسلام الخمس والتي جمعت بين معنى العبادة والثواب الأخروي، وبين معنى التكافل الاجتماعي و التنمية الاقتصادية المستدامة، ومنها كذلك منظومة الوقف والذي جمع بين الثواب الأخروي للواقف، والدور التنموي والاجتماعي للوقف، فالوقف ومنذ البدايات الأولى للدولة الإسلامية كان حاضرا على مستوى المساجد، وعلى مستوى التكفل بالفقراء والمعوزين، ولكن سرعان ما توسعت دائرته في العصور المتعاقبة ليشمل جميع مجالات الحياة من وقف صحي، ووقف اجتماعي، ووقف علمي، وهذا الأخير هو موضوع دراستنا، فالوقف العلمي من مدارس وجامعات ومكتبات وغيرها، كان رائجا في العصور الزاهية للحضارة الإسلامية، فلقد تسابق الحكام والخلفاء والعلماء والأغنياء في وقف المدارس والمكتبات حتى عمت القطر الإسلامي من أقصاه إلى

أقصاه، ومن هنا نسأل هل الوقف العلمي من مدارس ومعاهد ومكتبات كان له دور في تفعيل البحث العلمي في الحضارة الإسلامية؟

للإجابة على إشكالية الدراسة اتبعت المنهج الاستقرائي مستعينا بالمنهج التاريخي، وذلك بالعودة إلى المصادر التاريخية وتتبع أوقاف الجامعات والمكتبات عبر عصور الحضارة الإسلامية.

وقد قسمت الدراسة إلى مقدمة، ومدخل فيه ضبط لمصطلحات البحث، ومبحثين يحوي كلاهما مطلبين، فتناولت في المطلب الأول من البحث الأول وقف الجامعات، في حين كان المطلب الثاني منه عن وقف المكتبات، بينما في المبحث الثاني جاء الحديث عن أثر وقف الجامعات على البحث العلمي في مطلبه الأول، وفي المطلب الثاني منه تحدثت عن أثر وقف المكتبات على البحث العلمي، وختمت البحث بخاتمة ضمنت فيها بعض نتائج البحث وتوصياته.

مدخل : التعريف بمصطلحات البحث.

أولا- تعريف الوقف:

1- لغة: الوقف لغة سوار من عاج، ووقف وقوفا بمعنى دام قائما، ووقف القِدْرَ: أدامها وسَكَّنَها ووقف النصراني: خدم البيعة، ووقف الدار بمعنى الحبس.[1] وهذا المعنى الأخير هو الذي يوافق المعنى الاصطلاحي للوقف.

2- اصطلاحا: تحبيس مالك مطلق التصرف بماله المنتفع به مع بقاء عينه، ويقطع تصرف الواقف وغيره في رقبته، ويصرف ريعه إلى جهة بر تقربًا إلى الله تعالى.[2]

أو هو حبس العين على ملك الواقف والتصدق بالمنفعة، أو حبس العين عن التمليك مع التصدق بمنفعتها، فتكون العين زائلة إلى ملك الله تعالى من وجه.[3]

ثانيا- الجامعات والمكتبات:

1- الجامعات: من الجمع وهو خلاف التفريق جمعت الشيء أجمعه جمعا إذا ضممت بعضه إلى بعض وكل شيء تجمع وانضم بعضه إلى بعض فهو جماع. والجامعة: الغُلُّ; لأنها تجمع اليدين إلى العنق، والجامعة اليوم تعني مجموعة معاهد علمية تسمى كليات تدرس فيها الآداب والفنون

[1] مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، دط، بيروت، 1979، 6/135. القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى، تحقيق محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة، ط8، بيروت، 2005، 860.

[2] المطلع على ألفاظ المقنع: محمد بن أبي الفتح بن أبي الفضل البعلي، شمس الدين، تحقيق: محمود الأرناؤوط وياسين محمود الخطيب، مكتبة السوادي، ط1، جدة، 2003، 344.

[3] كتاب التعريفات: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1983، 253.

والعلوم.[1]

2- المكتبات: المكتبة أصلها من فعل كتب وهو يدل على جمع شيء إلى شيء. ومن ذلك الكتاب والكتابة، ومكتبة وهي تعني اليوم مكان بيع الكتب والأدوات المكتبية، أو مكان وضع الكتب لينتفع بها القراء والباحثون في قاعات معدة للقراءة والبحث.[2]

ثالثا- البحث العلمي: البحث العلمي هو دراسة مفصلة لمشكلة معينة تعتمد على أسس ومعايير علمية يتبعها الباحث لكي يتوصل إلى حقيقة المشكلة المبحوثة لإثراء المعرفة البشرية.[3]

المبحث الأول: وقف الجامعات والمكتبات في الحضارة الإسلامية

المطلب الأول: وقف الجامعات.

بعدما كانت المساجد هي مراكز التعليم الأولى في صدر الإسلام، أنشأ المسلمون في العصور الموالية معاهد ومدارس وقفية خاصة بالتعليم في جميع التخصصات كالشريعة، واللغة، والصيدلة، والهندسة، والطب، وقد ساهم في هذه الحركة الوقفية الكثير من الخلفاء والحكام والوزراء، والأثرياء والعلماء، وعامة الناس من أهل البر والخير خاصة في عصر العباسيين، والزنكيين، والأيوبيين، والمماليك، والعثمانيين، كأمثال الأمير محمد بن ياغي سيان الذي بنى بإقطاعه من أذربيجان عدة مدارس،[4]ومحمد بن منصور الملقب بشرف الملك ت 494هـ والذي بنى مدرسة بمرو ووقف فيها كتبا نفيسة، ومحمد بن منصور بن النسوي المعروف بعميد خراسان ت 494هـ والذي بنى بمرو مدرسة وأخرى بنيسابور،[5] ومهذب الدين أبو محمد عبد الرحيم المعروف بالدخوار والذي وقف كتبه على الأطباء، وجعل داره مدرسة للطب سميت باسمه الدخوارية، ووقف عليها ضياعا وأماكن كثيرة،[6] وكان يعرف بشيخ أطباء دمشق، حيث تتلمذ على يديه الكثير من الأطباء، وممن تولوا تدريس الطب

---

[1] جمهرة اللغة: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1987، 1/ 483،484. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية:إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار،دار العلم للملايين، ط4، بيروت، 1987، 3/ 1199. معجم اللغة العربية المعاصرة: أحمد مختار عبد الحميد عمر، عالم الكتب، ط1، القاهرة، 2008، 1/ 395.

[2] مقاييس اللغة: المرجع السابق، 5/ 158. معجم اللغة العربية المعاصرة: المرجع السابق، 3/1904.

[3] مناهج البحث العلمي دليل الطالب في كتابة الأبحاث والرسائل العلمية: عبد الله محمد الشريف، مكتبة الشعاع، ط1، الإسكندرية، 1996، 15.

[4] الكامل في التاريخ: عز الدين ابن الأثير، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي،ط1، بيروت، 1997، 8/ 553.

[5] المنتظم في تاريخ الأمم والملوك: جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1992، 17/ 72،73.

[6] العبر في خبر من غبر: شمس الدين الذهبي، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، دط، بيروت، دت، 3/ 201. الدارس في تاريخ المدارس: عبد القادر بن محمد النعيمي، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1990، 2/ 100،101.

في هذه المدرسة أو الكلية الطبية الرحبي، والحكيم بدر الدين المظفر بن قاضي بعلبك.[1]

الفرع الأول: أشهر المدارس الوقفية.

أولا –المدرسة البيهقية في نيسابور: يعود تاريخها إلى القرن الرابع الهجري وأنشأت قبل مدارس الوزير نظام الملك الطوسي.

ثانيا –المدارس النظامية: بناها الوزير نظام الملك أبو علي الحسن بن علي الطوسي في عام 457هـ، ونسبت إليه وقد انتشرت في كل من بغداد والبصرة والموصل وأصفهان وآمل وطبرستان ومرو ونيسابور وهراة وبلخ، وكان ذلك في عهد السلطان السلجوقي ألب أرسلان.[2]

ثالثا –المدرسة النورية بالشام: أنشأها الملك نور الدين محمود بن زنكي سنة 563 هـ.[3]

رابعا –المدرسة الفاضلية بالقاهرة: أقامها القاضي الفاضل أبو علي عبد الرحيم البيساني سنة 580هـ.[4]

خامسا –المدرسة الشهابية بالمدينة المنورة: مؤسسها الملك المظفر شهاب الدين غازي الأيوبي، في مكان دار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وبنيت لجميع مذاهب الأئمة الأربعة كما أوقف عليها الأوقاف الكثيرة في الشام ولها في المدينة وقف من النخيل، وللمدرسة قاعتان وفيها كتب نفسية.[5]

سادسا –المدرسة النصرية أو اليوسفية في غرناطة: بناها السلطان يوسف الأول عام 750هـ، بدأت أولاً تدرس العلوم الدينية، ثم أصبحت تهتم بمختلف أنواع المعرفة والفكر، وقصدها الطلبة من سائر مناطق مملكة غرناطة، ونالت شهرة واسعة حتى أوفد عليها طلاب العلم من عدوة المغرب.[6]

الفرع الثاني: تمويل المدارس الوقفية وظروف الحياة فيها.

أولا– تمويل المدارس: مولت المدارس إما بتبرعات المحسنين، أو عن طريق أملاك وقفية خاصة بها.

---

[1] البداية والنهاية: إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1988، 151/13. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: شمس الدين الذهبي، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، ط2، بيروت، 1993، 49/ 245.

[2] دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي: عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي، مؤسسة اقرأ، ط1، القاهرة، 2006، 279، 127. الكامل في التاريخ: عز الدين ابن الأثير، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، 1997، 8/ 212،204.

[3] الدارس في تاريخ المدارس: المرجع السابق، 466/1. عصر الدولة الزنكية ونجاح المشروع الإسلامي بقيادة نور الدين محمود «الشهيد» في مقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي: عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي، مؤسسة اقرأ، ط1، القاهرة، 2007، 217.

[4] صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس: عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي، دار المعرفة، ط1، بيروت، 2008، 254.

[5] تاريخ المدارس الوقفية في المدينة المنورة: المرجع السابق، 484،483.

[6] تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس: د خليل إبراهيم السامرائي وآخرون، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، بيروت، 2000، 357.

1- تبرعات المحسنين: كانت المدارس الوقفية عبارة عن مؤسسات تعليمية مستقلة اختير للتدريس فيها العلماء الأكفاء، وطلابها متفرغون ووقفت لهم وللأساتذة والموظفين المصروفات والإعاشة من كسوة وطعام ومياه وعلاج، وإنفاق من مستلزمات وأدوات وترميمات من قبل المحسنين واقفي المدارس أنفسهم أو غيرهم من أهل الخير، حيث كان التعليم مجانا لجميع الطلاب وفي جميع التخصصات، بل إن بعض المحسنين وقفوا على الأساتذة والطلاب الكتب والمراجع لتمكينهم من الدراسة والبحث العلمي.[1]

2- تخصيص أموال وقفية بها: ولجعل هذه المدارس مؤسسات مستقلة لها تمويلها الذاتي خصصت لها أموال وقفية كثيرة من عقارات، وحوانيت، وأراضي زراعية، وحمامات مؤجرة ونحوها من المرافق والمواقع التي تدر عوائد وأرباحا، ومن أمثلة ذلك نذكر:

أ- أوقاف المدارس النظامية: أوقف نظام الملك على مدرسته ببغداد ضياعا وأملاكا، وسوقا بنيت على بابها، وفرض لكل مدرس وعامل بها قسطا من هذا الوقف، وأجرى للمتفقهة (الطلاب) أربعة أرطال خبز يوميا لكل واحد منهم، أما مدرسة أصفهان فقد قدرت قيمة أوقافها بعشرة آلاف دينار، وكان للمدرسة النظامية في نيسابور أوقاف عظيمة.[2]

ب-أوقاف المدرسة النورية: كان حجم الأوقاف التي أوقفها نور الدين زنكي على المدرسة النورية للإنفاق من ريعه على الطلاب والمدرسين، والعاملين بالمدرسة من جميع الحمّام المستجد بسوق القمح، والحمامين المستجدين بالوراقة ظاهر باب السلامة والدار المجاورة، والريع من بستان الجوزة بالأرزة، والإحدى والعشرين حانوتا خارج باب الجابية، والساحة الملاصقة لها من الشرق، والستة حقول بداريا.[3]

وحسبنا دليلا على كثرة أوقاف هذه المدارس والمعاهد ونحوها في مدينة دمشق خاصة، أن الإمام النووي رحمه الله المتوفى سنة 676 هـ، لم يكن يأكل من فواكه دمشق طيلة حياته؛ لأن أكثر أراضيها الزراعية وبساتينها أوقاف قد اعتدي عليها واغتصبها بعض الظالمين.[4]

ثانيا-ظروف الحياة في المدارس الوقفية: نتيجة لما سبق من تمويل هذه المدارس بأموال الأوقاف توفرت الحياة الكريمة بداخلها, حتى راج سوق العلم بها، فأقبل عليها طلاب العلم من كل صوب

[1] تاريخ المدارس الوقفية في المدينة المنورة: طارق بن عبد الله حجار، لجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد 120 - السنة 35، المدينة المنورة، 2003، 477.

[2] دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي: المرجع السابق، 287.

[3] عصر الدولة الزنكية: المرجع السابق، 305.

[4] تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين: علاء الدين ابن العطار، ضبطه وعلق عليه مشهور بن حسن آل سلمان، الدار الأثرية، ط1، عمان، 2007، 68.

وحدب، حتى بلغ عددهم في نظامية بغداد سنة 488هـ زهاء الثلاثمائة طالب كانوا يتفقهون على الإمام الغزالي، أما نظامية نيسابور فكان يقعد بين يدي إمام الحرمين كل يوم نحو من ثلاثمائة رجل من الأئمة[1]، ويصف المؤرخون المدرسة النورية بأنها من أحسن مدارس الدنيا منظراً وأنها قصر من القصور الأنيقة،[2] وكذلك كانت المدرسة المستنصرية التي عمرها الخليفة العباسي المستنصر بالله في غاية الجمال والفخامة[3]، ولتيسير سبل الحياة في هذه المدارس حوت قاعات للمحاضرات، وغرف للمدرسين، وأماكن للمطالعة والراحة، وأخرى لتناول الطعام، وللطبخ، ومخازن لادخار الأطعمة والمواد المختلفة،[4] وكان في بعضها مساكن للطلاب، ومساكن أخرى للموظفين والعاملين فيها، بل إن بعض المدارس كالنظامية كان لكل طالب فيها غرفته الخاصة، إذ روي أن واحدا من طلابها ويدعى يعقوب الخطاط توفي في عام 547هـ وكانت له غرفة في النظامية، فحضر متولي التركات، وختم على غرفته في المدرسة.[5]

الفرع الثالث: وقف المدارس والمعاهد اليوم.

إن وقف المدارس والمعاهد والجامعات، لا يزال قائما حتى يومنا هذا، ونذكر منها مدارس الفلاح والمدارس الصولتية المعروفة بمكة المكرمة وجدة، وبعض الكراسي الوقفية في الجامعات السعودية مثل كرسي الملك عبد الله ابن عبد العزيز لأبحاث الإسكان التنموي في جامعة الملك سعود بالرياض، وكرسي الأمير سلطان بن عبد العزيز للدراسات الإسلامية المعاصرة، وكرسي الأمير نايف بن عبد العزيز لدراسات الأمن الفكري في الجامعة نفسها، وكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي، والمعهد العالي لعلوم الشريعة بباتنة، والمدرسة الكلتاوية والشعبانية بحلب، وكلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية ببيروت، وغيرها كثير في عامة العواصم والمدن الإسلامية، بل وغير الإسلامية كالجامعة الإسلامية التي أنشئت في عاصمة هولندا عام 1998 بأموال وقفية من الجالية الإسلامية هناك.[6]

المطلب الثاني: وقف المكتبات.

المكتبات وسيلة لنشر الثقافة والعلوم المختلفة، وقد عرفت المكتبات عبر العصور بأسماء عديدة

---

[1] دولة السلاجقة: المرجع السابق، 288.

[2] عصر الدولة الزنكية: المرجع السابق، 304.

[3] المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية: ربحي مصطفى عليان، دار صفاء، ط1، عمان، 1999، 133.

[4] ذيل مرآة الزمان: قطب الدين موسى بن محمد اليونيني، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط2، 1992، 1/72،71. دور الوقف في تعزيز التقدم المعرفي: حسن عبد الغني أبو غدة، أبحاث المؤتمر الثالث للأوقاف، المحور الرابع الوقف و تجديد الحضارة الإسلامية، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 2009، 213.

[5] دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي: المرجع السابق، 287.

[6] دور الوقف في تعزيز التقدم المعرفي: المرجع السابق، 216،215.

مثل: خزانة الكتب، بيت الحكمة، دار العلم، دار الكتب، دور الحكمة، وبعضها كان في المساجد والمدارس والمستشفيات. فالمكتبات الأولى للمسلمين نشأة مع نشأة المساجد، بعدها انتشرت في الأمصار المختلفة وخصوصا في العراق والشام ومصر.[1]

الفرع الأول: أنواع المكتبات الوقفية.

لقد أدرك المسلمون بجميع شرائحهم أهمية الكتاب والمكتبات في الرقي العلمي للأمة فتسابقوا على وقفها، فظهرت أنواع عديدة من هذه المكتبات نذكر منها ما يلي:

أولا- مكتبات عامة مستقلة:

1- دار العلم بالموصل: وتعد أول مكتبة عامة للقراء، ويرجع الفضل في إنشائها إلى الفقيه الشافعي ابن حمدان الشحام المتوفى سنة 323هـ.

2-دار العلم بطرابلس الشام: وهي من أشهر المكتبات العامة في الحضارة العربية الإسلامية، تأسست على يد الحسن بن عمار سنة 447هـ، وقيل أن عدد كتبها بلغ ثلاثة ملايين مجلد في مختلف فروع المعرفة الإنسانية من دين وطب وفلك وأدب وتاريخ أحرقت كلها على يد الصليبين عند احتلالهم المدينة سنة 502هـ.

3- مكتبة بيت الحكمة ببغداد: تأسست على يد هارون الرشيد، حيث جمع لها من الكتب الشيء الكثير، وبعده حظيت بعناية عدد من الخلفاء العباسيين كالمأمون ومن بعده، ولقد حوت المكتبة على نفائس المصاحف والكتب والمصنفات في شتى أنواع المعارف، أتلفت جميعها على يد التتر حينما اجتاحوا المدينة.

4- دار العلم بالقاهرة: أسسها الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله سنة395هـ، وتعد من أضخم المكتبات الإسلامية.[2]

إلى جانب هذه المكتبات العامة المستقلة، نجد مكتبات المساجد والتي تعد بحق مكتبات عامة مفتوحة لجميع طبقات المجتمع حوت على نفائس الكتب.

ثانيا- مكتبات المساجد: إن نشأة المكتبة الإسلامية كانت مرتبطة بنشأة المسجد، ولذلك لا غرابة في أن نجد المساجد عبر الأمة الإسلامية تحوي مكتبات نفيسة أوقفها أصحابها رجاء الجزاء والثواب من الله تعالى ونذكر من هذه المكتبات: مكتبات الحرمين الشريفين بمكة والمدينة، ومكتبة الجامع الأموي بدمشق، ومكتبة مسجد القمرية ببغداد، ومكتبة الجامع الأزهر بالقاهرة، ومكتبة جامع

[1] المكتبات الإسلامية وأثرها في التعليم منذ نشأتها وتأسيسها وحتى القرن السابع الهجري: علي بن علي الجهني، مكتبة العلوم والحكم، ط1، المدينة المنورة، 1425هـ، 1/ 267،257. تاريخ المدارس الوقفية في المدينة المنورة: المرجع السابق، 477، 478.

[2] المعارف: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، القاهرة، 1992، 31-34. المكتبات الإسلامية وأثرها في التعليم: المرجع السابق، 1/ 393،368،362،358،348،347.

الزيتونة بتونس، ومكتبة جامع القرويين بالمغرب، ومكتبة جامع قرطبة وجامع طليطلة بالأندلس، ومكتبة جامع نيسابور، ومكتبة جامع أصفهان وغيرها من مكتبات الجوامع والمساجد عبر القطر الإسلامي.[1]

ثالثا – مكتبات المدارس والمعاهد: حرص الحكام والعلماء والأثرياء من واقفي المدارس والمعاهد على تهيئة المناخ العلمي المساعد على الدراسة والبحث بتوفير المراجع العلمية داخل هذه المدارس فظهرت بذلك المكتبات الوقفية الملحقة بالمدارس كالمدارس النظامية والتي ألحقت بكل مدرسة منها مكتبة عامرة يتولى أمرها قوام على شئونها[2]، والمدرسة الفاضلية بالقاهرة والتي وقف القاضي الفاضل وزير صلاح الدين عليها عددا كبيرا من الكتب قيل إنها بلغت مائة ألف كتاب،[3] ومدارس تونس والقيروان والتي وقف عليها الأمير أبو الحسن المريني كتبا كثيرة ومتنوعة، وغيرها من مكتبات المدارس عبر ربوع العالم الإسلامي كالمدرسة البيهقية بنيسابور، والنورية بحلب، والنصرية بغرناطة...[4]

رابعا– مكتبات المستشفيات:لم يقتصر وقف الكتب والمكتبات عند المسلمين على دور الكتب العامة والمساجد والمدارس، بل تعده إلى المراكز الطبية و المستشفيات، حيث ضم إيوان تدريس هذه الأخيرة عدد كبيرا من كتب الطب والصيدلة وعلم التشريح، وعلوم الفقه المتعلقة بالطب، ومن تلك المكتبات الوقفية نذكر مكتبة مستشفى أحمد بن طولون بالقاهرة والتي حوت أكثر من مائة ألف مجلد، ومكتبة المستشفى العضدي ببغداد، الذي أنشأه عضد الدولة البويهي في القرن الرابع الهجري، ومكتبة مستشفى نور الدين الزنكي بدمشق والتي كان فيها خزانتان من الكتب أكثرها في العلوم الطبية، ومكتبة المستشفى المنصوري بالقاهرة والتي احتوت على كتب كثيرة، منها كتب العالم المعروف بابن النفيس، المتوفى في سنة687 هـ والذي وقف جميع كتبه على هذا المستشفى الذي كان يعمل فيه.[5]

خامسا– مكتبات وكتب أخرى وقفية: إلى جانب هذه المكتبات انتشر بين المسلمين أنواع أخرى من المكتبات الوقفية كالمكتبات التي تلحق بقبور الملوك والعظماء، والزوايا، والمكتبات الخاصة بأفراد

[1] المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية: ربحي مصطفى عليان، دار صفاء، ط1، عمان، 1999، 117. المكتبات الإسلامية وأثرها في التعليم: المرجع السابق، 284-300.

[2] دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي: المرجع السابق، 287

[3] صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس: المرجع السابق، 254.

[4] دور الوقف في تعزيز التقدم المعرفي: المرجع السابق، 220،221.

[5] المكتبات الوقفية في الحضارة الإسلامية ودورها في تطوير البحث العلمي: حياة عبيد، مجلة البحوث والدراسات، جامعة حمه لخضر، العدد19، السنة12، الوادي، 2015، 153. دور الوقف في تعزيز التقدم المعرفي: المرجع السابق، 222،221.

أنشأوها من أموالهم الخاصة، حيث يقتصر استخدامها على المقربين، وقد تفتح لعامة الناس، أو يتم في غالب الأحيان وقفها على النفع العام فتكون بذلك مكتبات عامة.[1]

إن ظاهرة وقف المكتبات الخاصة مازال قائما إلى اليوم، وعلى سبيل المثال نجد مكتبة الشيوخ الملحقة بالمكتبة الجامعية أحمد عروة لجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، والتي تأسست سنة 1989 بتلقي الجامعة أول هبة من طرف الشيخ محمد خير الدين نائب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، واستمرت المكتبة في النمو لتحوي اليوم 20 مكتبة من مكتبات علماء الجزائر ومشايخها تضم حوالي7307 عنوانا في شتى أصناف العلوم والفنون الكثير منها من فئة الطباعات النادرة، كما تحوي كذلك 1080 مخطوطا وضعت في مخبر مستقل مجهز بكل الشروط المناسبة لحفظها.[2]

الفرع الثاني: تنظيم وإدارة المكتبات.

خضعت المكتبات الوقفية لأسلوب علمي متقدم في الإدارة والتنظيم، حيث كان لكل مكتبة مديرون وأمناء على الترجمة كما في بيت الحكمة ببغداد، ومعهم كتاب حُذاق، ويشتغل فيها علماء ونسّاخون، وخزّان ومجلّدون وورّاقون، كما كان يسير المكتبات الكبرى الوكيل أو المدير والذي يتولى تسيير أوقافها، وأما الإدارة الفنية فيتولاها شخص يسمى خازن المكتبة أو أمين المكتبة والذي يشترط فيه العلم والأمانة والكفاءة، كما كان للمكتبة مخازن للكتب أين يمكن للطلاب استعارة ما يطلبونه من خازني الكتب والمناولين، وبها أيضا غرف للمطالعة والمناظرة والنقاش، وقسم للنقل والترجمة، وآخر للتأليف والنسخ والتجليد والتذهيب، وكان لكل مكتبة فهارس موضوعية يرجع إليها لتسهيل استعمال الكتب، وهي على نوعين إما مكتوبة في مجلدات، وإما مكتوبة على لائحة معلقة على كل قسم من أقسام خزائن الكتب [3]

المبحث الثاني: أثر وقف الجامعات والمكتبات على البحث العلمي

المطلب الأول: أثر وقف الجامعات على البحث العلمي.

لقد ساهم وقف الجامعات والمعاهد عبر تاريخ الحضارة الإسلامية في توفير جو علمي ساعد الباحثين من أساتذة وطلبة على التفكير والتأليف والابتكار وإضافة الجديد إلى العلوم المختلفة بصفة مستمرة،كما عمل على توسيع الأفق الفكري لدى الطلاب عن طريق نقل تراث الأمم السابقة

[1] المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية: المرجع السابق، 142،129.

[2] مقابلة شخصية مع مسؤولي مكتبة الشيوخ ومخبر المخطوطات لجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية: بلال حجاز، رؤوف لبصير، جامعة الأمير عبد القادر، من09-10.30 صباحا، قسنطينة، 07 فيفري2017.

[3] المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية: المرجع السابق، 160،151. المكتبات الإسلامية وأثرها في التعليم: المرجع السابق، 383،382،377. المكتبات الوقفية في الحضارة الإسلامية ودورها في تطوير البحث العلمي: المرجع السابق، 145

والمعاصرة، وساهم أيضا في إعداد الكوادر الفنية المؤهلة لممارسة الأعمال المختلفة سواء في مجال الجهاز الحكومي أو في غيره.[1]

فلقد كانت هذه المدارس الوقفية خير وسيلة لطلب العلم ونشره وتعميمه، وبفضل نظامها المحكم وتمويلها الذاتي عمرت بعض المدارس أمدا طويلا كنظامية بغداد التي استمرت زهاء أربعة قرون قضتها كلها في نشر العلم وتخريج العلماء والعظماء كان آخرهم صاحب القاموس الفيروز آبادي المتوفى سنة 817هـ.[2]

وكذلك خرجت المدرسة النورية أعدادا هائلة من الطلاب والعلماء الذين كان لهم الأثر البالغ في الحياة العلمية والسياسية والاجتماعية في ذلك العهد.[3]

ولم تخل الأندلس من هذا التقدم العلمي والرقي الحضاري، فعلى سبيل المثال شهدت مملكة غرناطة نهضة علمية كان من روادها خرجي المدارس الوقفية أمثال محمد بن الرقاح المرسي الذي اشتهر بالهندسة والرياضيات، وأبو يحيى بن رضوان الوادي آشي عالم الفلك وواضع رسالة الإسطرلاب، والطبيب ابن السراج، وابن الخطيب، وغيرهم من الأطباء الذين تمكنوا من علاج سموم الحيات، ومرض النقرس، ومرض عرق النسا، وبينوا كيفية انتقال الأمراض بالعدوى عن طريق الثياب وغيرها من طرق العدوى وفي هذا إشارة لوجود الجراثيم، إلى غير ذلك من النهضة العلمية والأدبية والفكرية.[4]

وهكذا أسهمت المدارس الوقفية في نمو الحضارة الإسلامية، وتنويع معارفها وتعزيزها، والعمل على ازدهارها ورقيها بحيث غدت حضارة إنسانية ينعم الجميع بفضائلها الفكرية والثقافية والمعرفية.

المطلب الثاني: أثر وقف المكتبات على البحث العلمي.

كي تسهم أي مكتبة في تطوير البحث العلمي يجب أن تتوفر فيها معايير معينة كتواجد الكتب المتخصصة فيها، وفهارس بيبليوغرافية تساعد على الوصول للمعلومة بأقل وقت وجهد ممكن، ونسخ عديدة للكتاب الواحد، للسماح لأكبر عدد من الباحثين بالاطلاع عليه في وقت واحد، وأن تكون أبوابها مفتوحة غالب الأوقات.[5]

و من هذه المعايير يتبين لنا ما للمكتبات الوقفية القديمة من إسهام جوهري في البحث العلمي،

---

[1] دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي: المرجع السابق، 283،284.

[2] دولة السلاجقة: المرجع السابق، 292، 293.

[3] عصر الدولة الزنكية: المرجع السابق، 305

[4] تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس: المرجع السابق، 358،359.

[5] المكتبة الجامعية والبحث العلمي في الجزائر: كمال بطوش، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة قسنطينة، العدد 9، قسنطينة، 1998،110.

وتيسير أسباب الارتقاء الحضاري، والتنمية الثقافية والعلمية للناس، فالمكتبات الوقفية فتحت أبوابها للجميع في غالب أيام الأسبوع، بل أنها وفرت غرفا خاصة للطلاب والباحثين للإقامة بها، كما حوت على رصيد علمي متخصص في شتى ألوان المعرفة الإنسانية، بأعداد ضخمة ونسخ متعدد للكتاب الواحد، يتصفحها الطلاب والعلماء بالمجان، كما حوت على فهارس متعددة لتسهيل الوصول إلى المعلومة بأقصر وقت وأقل جهد. فازدحمت جنباتها بالعلماء والفلاسفة والمترجمين والمؤلفين وأئمة اللغة ورجال الأدب كفيلسوف العرب أبو يوسف يعقوب الكندي، الذي لم يقف عند التعريف بفلسفة أرسطو وأفلاطون عن طريق الترجمة والاقتباس، بل تجاوز ذلك إلى دراسات في التاريخ الطبيعي وعلم الظواهر الجوية، والحجاج بن يوسف بن مطر الذي ترجم مصنفات إقليدس، وكتاب بطليموس، ومحمد الخوارزمي الذي وضع أول كتاب مستقل في الجبر وغيرهم كثير. [1]

ولا تزال اليوم المكتبات الوقفية تلعب دورا أساسيا في إثراء البحث العلمي كما هو الحال في مكتبة الشيوخ بجامعة الأمير، وذلك بما وفرته من خدمات غير مباشرة كالجرد والصيانة والتصنيف والفهرسة، وخدمات مباشرة من إعارة داخلية وتوجيه سواء عبر الفهارس البيبليوغرافية اليدوية أو الآلية، حيث أن فهرس المكتبة متاح في الانترنت عبر محرك بحث "سنجاب" مما يوفر المال والجهد على الباحثين، كما أن المكتبة تعد تواصل بين جيل المشايخ في زمن الاستعمار وجيل الباحثين اليوم، فتنوع رصيد مكتبات المشايخ يرسل رسالة للباحثين بفتح فكرهم على مختلف العلوم والفنون من طب، وفلك، وفلسفة وقانون، وعدم التقوقع في مجال التخصص، كما أن النسخ النادرة والمفقودة التي تحويها المكتبة، تسمح للباحثين بإعادة الطباعة من جديد خاصة وأن أغلبها من فئة التراث التي تقادمت حقوق نشرها، كما أن مخبر المخطوطات هو الآخر مزود بفهارس للبحث اليدوي، والآلي وأغلب المخطوطات فيه تم رقمنتها، مما يتيح للباحث التحصل عليها في شكل قرص مضغوط كل هذا خدمة للبحث العلمي وتقدمه.[2]

الخاتمة

إن من أهم النتائج التي توصل إليها البحث ما يلي:

1- ازدهر وقف المدارس والمكتبات في القرن الخامس والسادس الهجري حتى غدت المنظومة التعليمية الإسلامية قائمة على الوقف.

2- التمويل الذاتي للمدارس وحتى المكتبات عن طريق أوقاف خاصة بها جعلها في مأمن من

[1] المعارف: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، القاهرة، 1992، 31-34.

[2] مقابلة مع مسؤولي مكتبة الشيوخ ومخبر المخطوطات لجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية: المصدر السابق.

التقلبات المالية، ومكنها من التعمير لعقود بل ولقرون.

3- المسجد هو قلب المجتمع النابض، ومهد أي نشاط فاعل في المجتمع، ومنه نشأت المدارس والمكتبات.

4- المدارس والمكتبات الوقفية كانت على درجة عالية من التنظيم والتأهيل حوت كل الوسائل البشرية والمادية الميسرة للعملية التعليمية.

5- ثنائية المدارس والمكتبات الوقفية أنتجت تطورا علميا مذهلا على مستوى تخريج العلماء وعلى مستوى التقدم الحضاري والبحث العلمي.

6- تجربة المداس والمكتبات الوقفية لا تزال مستمرة إلى اليوم، ورغم أنها بصفة أقل بحكم تمويل الدولة لقطاع التعليم والمكتبات إلا أنها لتزال تسهم في تقدم البحث العلمي كما رأينا في مكتبة الشيوخ بجامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة.

وفي الأخير نضع بعض التوصيات نذكر منها:

1- الاهتمام بالأوقاف عامة وبالوقف العلمي خاصة، وتفعيل دورها في المجتمع.

2- القيام بعمليات إشهارية لنشر ثقافة الوقف في طبقات المجتمع لتشجيع الناس على الوقف في جميع مجلات الحياة خاصة في المجال العلمي لما ذلك من أثره الايجابي على نهضة الأمة.

3- تزويد نظام الوقف بترسانة قانونية تساعد على إنشائه وتنظيمه وتسييره بأفضل السبل، وتسهل على الناس عملية وقف أموالهم.